بداية تشكل الدولة الوطنية و مميزاتها و إشكالياتها

شكلت "معاهدة ويستفاليا" التي أبرمت سنة 1648 و إستهدفت تحقيق الصلح بين الإمبراطوريات الأوروبية المتناحرة، المنطلق في نشأة الدولة الوطنية (الدولة ـ الأمة) أو ما يطلق عليه بالدولة القومية،

و قد كانت صورة الإتفاق في تشكيل الخارطة الجديدة قائمة على إتخاذ كل مجموعة ـ من الأعراق الذين ينطقون لغات متشابهة ـ أرضا يبسطون يد السيادة عليها و يعينوا لها حدودا لتصبح دولتهم التي لا تشاركهم فيها عرقيات أخرى.

و مفهوم القومية يعني الوعي الجماعي بالإنتماء إلى هوية معينة و لغة مخصوصة و ثقافة متناغمة،

و ينتج عن هذا الإنتماء فكرة الشعور بالولاء، التي تمثل الإستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الجماعة،

و تعتبر السيادة La souveraineté الميزة الأساسية للدولة القومية.

و من التعاريف الأخرى لإصطلاح القومية نورد طرح زعيم حركة اليقظة القومية في إيطاليا و الذي يدعى ستانيسلاو مانشيني (1817- 1888)، و يدعي أنها مجتمع طبيعي من البشر يرتبط ببعضه البعض بوحدة الأرض و الأمجاد و اللغة جراء الإشتراك في الحياة و في الشعور الإجتماعي.

و نظرا لعدم ثبات الدول القومية على حال فإنها قد واجهت من الإشكاليات ما ساهم في قولبتها في صور جديدة أحيانا و في تهديد وجودها أحيانا أخرى، و من تلك الإشكاليات التي لا تفتأ تظهر على السطح في كل مرة إشكال الهوية L'identité و إشكال العولمة La globalisation.

و في رأي محمد عابد الجابري (1935- 2010) يعود سبب إشكال الهوية للتصور الكلاسيكي للقومية، الذي يعتمد الهوية كحجر الأساس في بناء الدولة القومية، إذ يقول: " تؤكد المدرسة التقليدية في دراستها لمفهوم الدولة القومية على تطابق حدود الدولة مع حدود الضمير القومي، معتبرة هذه الحدود عاملا مميزا للأمم و ضامنا لهويتها و سيادتها و شرعيتها القانونية و التاريخية، و ترى المدرسة الحديثة أن الدولة القومية ترتبط بظاهرتي الحدود الإقليمية و الولاء القومي".

من جانب آخر يعد إشكال العولمة شوكة في حلق الدولة القومية في نظر الكثير من المفكرين، فالعولمة تهديد حقيقي لها في وجودها، و من مساندي هذا الرأي الجابري الذي خصص لها الفصل الأخير في كتابه قضايا في الفكر المعاصر و جعل له عنوان: العولمة : نظام و إيديولوجيا.

و في تصوره فإن العولمة لا تمس مكونات الدولة و شروط سيادتها بل إنها تستهدف أساسا إعادة صياغة وظائفها و توجيه إستراتيجيتها و سياستها الإقتصادية لتسهيل إدماجها في معترك إيديولوجيا العولمة، إذ يقول: [1]

[1] ـ قضايا في الفكر المعاصر، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 1997، ص 149

العولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن، وفي مقابل ذلك يعمل على التفتيت والتشتيت. إن إضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لفائدة العولمة يؤديان حتماً إلى استيقاظ أطر للانتماء سابقة على الدولة، أعني القبيلة والطائفة والجهة والتعصب والمذهبي. والنتيجة تفتيت المجتمع وتشتيت شمله.

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هنا، وبالنسبة لوضعنا نحن العرب وبقية العالم الثالث هو: كيف يمكن تحقيق نهضة أو تنمية إذا أصبحت الدولة مجرد دوكي يحافظ على «الأمن» لفائدة «الفاتحين الجدد»: الشركات والمؤسسات المتعددة الجنسية التي شعارها: «أكثر ما يمكن من الربح بأقل عدد من المأجورين؟». ثم ماذا ستعنيه «السياسة» و«الديمقراطية» في عالم العولمة هذا؟